سحر
سحر الكلمة قدرتها على جعل الإنسان يعتقد أنه هو وأنت رائعان.
فرانكلين

زكريا تامر.. الصانع الأمهر

كتب:أ.د.عبد النبي اصطيف

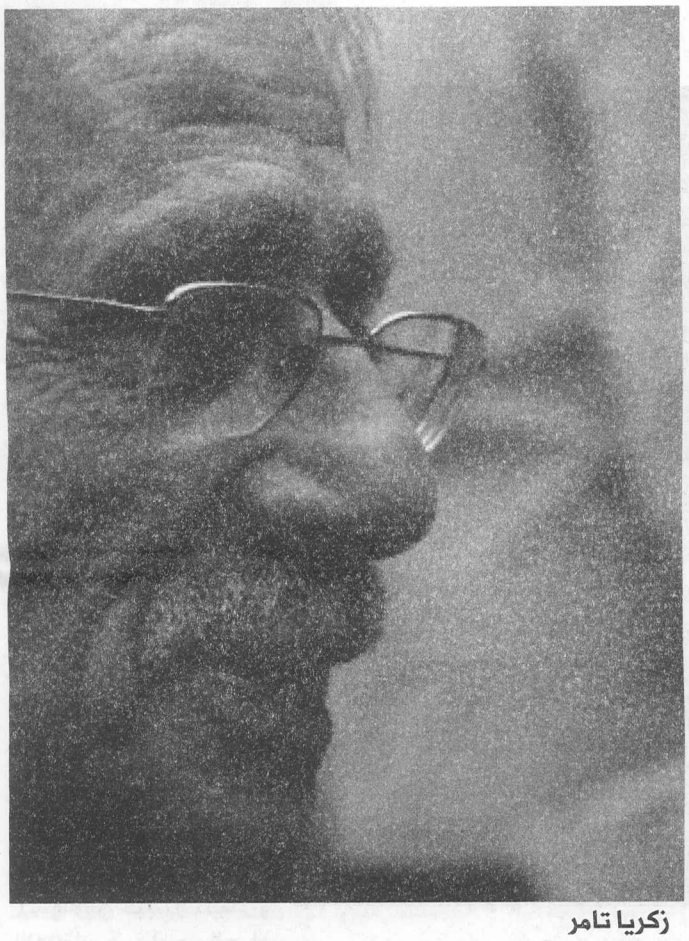
زكريا تامر

ربمـا كان مـن أبرز مايميّز عمل زكريا تامر، بوصفه كاتب قصة قصيرة من الطراز الأسـمى، أنه كاتب مُحَكِّك، وما أعرفـه عنه، ومما أفضى به إليّ في لقاءاتنا الكثيرة في دمشـق ولندن وأكسـفورد وأخيـراً في مونتريال، أنه قد يُمضي شهوراً في تنقيح قصصه وإعادة النظر فيها، بل وإعادة كتابتها، وأن عمله هذا عمل مضن وشاق ومرهق جداً يستنفد جل طاقته وجهده ووقته.

ولذا فإن من الطبيعي أن يكون زكريا تامر كاتباً مُقِلاً نسـبياً، فما نشـره من قصص قصيرة على مدى نصف قرن يظل أقل مما ينشـره في أيامنا هذه كاتب ناشـئ لم يتجاوز عقده الثالث. ولكنه من ناحية أخرى، وبوصفه كاتباً محكّكاً، غدا موضع اهتمام واسع من جانب النقاد الذين يميلون إلى ممارسة النقد النصي Textual Criticism على طريقة النقاد الجدد New Critics، إذ إن معظم نصوصه يشـبه الإيقونات اللفظية Verbal Icons إذا ما استعرنا عبـارة واحـد من أبرزهم هو ويليام، ك، ويمزات الابـن W. K. Wimsatt Jr. صاحب فكرة المغالطة القصدية Intentional Fallacy.

وهكـذا وجدنـا نقاداً كبـاراً من طبقة حسـام الخطيب، ومحمد شـاهين، وصبري حافظ، وكمال أبو ديـب، وجابـر عصفـور، وغيرهـم يتدبرون نصوصه بالشرح، والتحليل المتمعن، والتفحص الدقيق، لكل كلمة أو عبـارة أو رمز أو علامة فيها، ويخرجون علينا بنقد رفيـع يغني فهمنا للنص التامري، الذي يكاد يكون نسيجاً فريداً في القصّ العربي الحديث لعالم فريد لا يشـبهه عالم آخر، هو عالم زكريا تامر، الذي تحدثت عنه في أكثر من مناسـبة وأكثر من محاضرة بالعربية والإنكليزية في دمشق وإنكلترا والولايات المتحدة الأمريكية وأسـتراليا، وتحـدث عنه، بل فُتِن بـه، كثير من الدارسـين الغربيين والشرقيين الذين نظروا إلى نصوصـه على أنها جزء من متـن الأدب العالمي المعاصـر. ولعل فـوزه مؤخراً بجائـزة المجيدي بن ظاهر التي تديرها مؤسسـة الحاضرة الزرقاء Blue Metropolis Foundation، وتسلّمه لها في مهرجانها الدولي الحادي عشر والذي انعقد بين 22 و26 من شهر نيسان المنصرم، والحفاوة الكبيرة التـي ظفر بها في أثنـاء المهرجان من منظميه، ومـن رصفائه من الكتـاب العالميين، ومن جمهور مونتريال الـذي صُقِل ذوقه الرفيع بالتعدديـة اللغوية والثقافيـة التي ينعم بها، أكبر مؤشـر على منزلة زكريا تامـر بوصفه كاتباً عربياً أصيلاً يكتب بنَفَس إنساني، ويقرؤه الناس عبر قارات العالم بوصفه كاتبـاً عالمياً من خلال الترجمات التي شملت معظم لغات العالم الحية.

ويبدو لي أن العامل الأهم الذي يكمن وراء رفعة مستوى النص التامري هو الحس النقدي الرفيع لزكريا تامر نفسه، وهو ما سبق أن تحدث عنه ت. إس. إليوت في معرض عَتَبِه على الشـاعر-الناقد ماثيو أرنولد لعدم تنبهه إلى ما دعاه بـ «الأهمية الكبرى للنقد في فعل الخلق نفسه»، إذ نراه يكتب منبهاً القارئ على ما ينطوي عليه فعل الخلق من جهد نقدي يسمو بالعمل الأدبي نفسه:

« الجزء الأكبر من جهد المؤلف في إنشـاء عمله هو في حقيقة الأمر جهد نقـدي، جهد الغربلة، والجمع، والإنشـاء، والشطب أو المحو، والتصحيح والاختبار، فهذا الكد المخيف نقدي بمقدار ماهو إبداعي. بل إني أزعم أن النقد الذي يوظفه الكاتب الماهـر والمدرب في عمله من أكثـر أنواع النقد حيوية ورفعـة، وأن بعض الكتاب المبدعين، كما أعتقـد أنني قلت من قبل، متفوقون على غيرهم، لا لشيء إلا لأن ملكتهم النقدية متفوقة «1.

والحقيقـة أن من بين المسـائل التي تناولها زكريا تامر في لقائـه المفتوح في مونتريال بعد تسـلمه جائزة المجيدي بن ظاهر علاقته بنقاده وتلقّيه لنقدهم، ومما سجلته في هذا اللقاء الذي حضرته، والذي كان زكريا تامر فيه شفافاً وصريحاً وصادقاً وسـاحراً، أنه قال، وبكل صراحة ومباشرة عـن نقاده العرب، إنـه لا يحترمهم ولا يحترم ما يكتبون لأنه يرى أنهـم لا يفهمون قصصه حق الفهم، وحتى أسـئلتهم التـي يوجهونها إليه عندما يتهيؤون للكتابة عـن قصصه تكون في الغالب ليست بذات صلة، وعندما تكون ذات صلة فإن هذه الصلة تكون واهية جداً بنتاجه، وبدلالات قصصه. والسبب في ذلك كله هو أنهم، ولاسيما الصحفيون منهم، قوم كسالى لا يُعنَون بتدقيق مـا يوردونه من معلومات وحقائق عنه، وكثيراً ما يعتمدون على السماع في آرائهم التي يبدونها في قصصه.

وعلى خـلاف النقاد العرب يجـد زكريا تامر أن أسـئلة النقاد الغربيين والشـرقيين أكثر صلة بقصصـه، وبالدلالات التـي أراد تبليغها القارئ، ولذلـك فإنه يُكِـنّ احتراماً أكبر لهـم، ويفضل أن يتعاون معهم لأنهـم يتعاملون مع قصصه بجدية واهتمام وتقدير.

وذكر مثالاً على تعامل أحد النقاد العرب مع قصصه نُشر في مجلة الهـلال المصرية أشـار فيه دارسـه إلى تأثر زكريا تامـر بقصص العنف الغربيـة، فمـا كان من هذا الأخير إلا أن ذكّـره بملحمة الظاهر بيبرس والراهب جوان ومؤامراتـه المتوالية لقتل القواد العـرب، وما يمكن أن يولد سـلوكه من حقد متنام على شخصيته، مما يجعل قتله في نهاية المطاف بتقطيعه إرباً إرباً أمراً جدّ طبيعي.

وأضاف في معرض تعليقه على هذه الدراسـة إن الأديـب العربي يتأثر بدايـة بواقعه القطري، ثـم بواقعه العربـي، وبعدها بالعالـم، وهذا هو المسـار الطبيعي بالنسبة لأي كاتب عربي، ولكن الغريب أن نقـاد زكريا يبدؤون دائمـاً من تأثره بالآخر الأجنبي، متناسـين، أو متجاهلين، موروثه العربي.

كل ذلك دفـع زكريا أن يقلع عن قراءة ما يكتبه النقـاد العرب عن قصصه. وفي محاولة تسـويغ فعله هذا أشـار إلى أن ما يكتبونـه إما أن يكون مديحاً يحـول بينه وبين تطوير فنه، بسـبب ما يمكن أن يولّده في نفسـه من رضا قد يكون أول علامات التراجع الفني، وإما أن يكون قدحاً يجعله يؤكد ما يؤخذ عليه مـن عيوب، بوصف ذلك ردة فعل على خطئهم في نقده وعلى صواب ماذهب إليه مما وجهوا إليه سـهام نقدهم. ولكن زكريا من جهة أخـرى أقر بأن زوجته تقرأ ما يُكتَب عنه وتلخِّصـه له، وأنه يقرأ نقد مـن يعرف أنه يحبه ويحـب فنَّه ويحـرص عليهما، ويفيـد منه أيما فائدة. والحقيقة التي ينبغي ألا تغيب عن قارئ زكريا تامر هي أنه أكبر ناقد لقصصه بما يتدبرها من ألوان التنقيح والتعديل والتصحيح والحذف وغيرها، وربمـا كان هـذا وراء احتفاظه باهتمام قرائه على مدى تجاوز نصف قرن.

وعلى أي حال فإن هذه الإشـارة المقتضبة إلى رأي زكريـا تامر ببعض كتابـات نُقّاده يمكن أن تكون إسهاماً من الكاتب نفسه في النقاش الذي طالَ شـخصَه وكتاباته في الصحافة المشـرقية والذي يشـي بمكانة الصانع الأمهر الذي لا يزال مقروءاً على نحو واسع من قبل طيف واسع كذلك من القراء العرب والأجانب، لأنه كما يصف نفسه «حكواتي»، وهـو بحق حكواتـي لا يُمَلّ حديثه، الذي لا يعرفـه إلا من تذوقه عن كثب، ولا يعرف القصّ إلا من سمعه على لسان زكريا تامر.

(Endnotes)

1 انظر :

T.S. Eliot,

Selected Prose of T.S. Eliot,

Edited with an Introduction by Frank Kermode

(Faber And Faber, London, 1975), p. 73.